



الإمام الغزالي وإسهامه في مجال التربية والتعليم

أعلام تربوية

د. عبد الحليم محمد أيت أمجوض¹

مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على المبعوث إلى خير أمة أخرجت للناس؛ زكاها وعلمها الكتاب والحكمة، فربى على هدى من القرآن الكريم جيلا من الصحابة، خلد الله ذكرهم في العالمين، حين سمت هممهم إلى مقام الخيرية عبر مدارج "التعلم والتعليم"؛ فورثوا العلم، بل تشربوا منهج التربية والتعليم، فكانوا مثالا للأنفس التواقعة بعدهم من أكابر العلماء الربانيين المربين، الذين حفظوا روح المنهج القرآني عبر القرون، وأبدعوا في وسائله وطرائقه وأساليبه؛ تجديدا يحيي به الله الأمة الوارثة جيلا بعد جيل.

ومن هؤلاء الأئمة المجددين الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى، الذي استحق لقب حجة الإسلام، لما أكرمه الله تعالى به من المنزلة الرفيعة في العلم والعمل والتعليم؛ فهو من أعلام علوم الدين الكبار، ومن أشهر فلاسفة المسلمين، صاحب المنهج الإصلاحى المتفرد القائم على تشخيص أمراض المجتمع، ووضع منهاج التربية والتعليم، وبناء العقيدة الإسلامية، ومحاربة التيارات الفكرية المنحرفة، وإصلاح الفكر (...). إنه من رواد الفكر الممنهج العميق الذي يتجلى بوضوح للناظرين في تراثه على اختلاف موضوعاته وفروعه.

لذلك أرجو أن تشرف مقالتي هذه بالحديث عن "الإمام الغزالي وإسهامه في مجال التربية والتعليم"، وقد جعلتها أربعة مطالب؛ أولها في التعريف بالإمام الغزالي رحمه الله؛ نسبته ونشأته ودراسته وإمامته في العلوم وتجربته الروحية، وثانها في تركته العلمية والتربوية، وثالثها في تجربته في التدريس وفلسفته التربوية، ورابعها في معالم منظومته التربوية التعليمية.

¹ أستاذ التعليم العالي مؤهل بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين البيضاء/سطات

المطلب الأول: التعريف بالإمام الغزالي رحمه الله:

أولاً: نسبته ونشأته ودراسته:

هو الإمام أبو حامد محمد الغزالي الطوسي النيسابوري الأشعري الشافعي، الأستاذ الجيهذ الفقيه الأصولي الفيلسوف (...)، ثم الصوفي الجامع، مجدد القرن الخامس الهجري، ولد وعاش ما بين سنتي: (450هـ/1058م) و (505هـ/1111م)¹.

ينسب إلى غزاة، بتخفيف الزاي، وهي قريته التي ولد فيها بالقرب من طوس²، كما ينسب إلى الغزالي، بتشديد الزاي، نسبة إلى الغزال حرفة والده³؛ الذي كان رجلاً زاهداً محباً للصوفية، مجالساً للفقهاء، حريصاً على خدمتهم حرصه على تعليم ولديه محمد وأحمد؛ ليكونا على أثرهم، إلى أن حضرته الوفاة، فعهد إلى صوفي صديق له برعايتهما، وأعطاه ما لديه من مال يسير، وأوصاه بتعليمهما وتأديبهما. فاجتهد الرجل في تنفيذ وصيته إلى أن عجز عن الإنفاق عليهما، فأرشدتهما إلى مدرسة ليتعلما، ويحصل لهما قوتيهما؛ ففعلاً⁴.

هكذا طلب الغزالي العلم بداية في طوس، ثم رحل إلى جرجان، وأمضى فيها زمناً قبل أن يعود إلى طوس من جديد، وفي طريق عودته عرض له قطاع طرق في حادثة طريفة جعلها الله له سبباً لإعادة النظر بشأن منهجيته في التعلم؛ ذلك لأنهم أخذوا تعليقه التي حوت دروس شيوخه مما خطه دون حفظ، ومضوا فتبعهم، فأرهبه مقدمهم، لكنه ألح في الطلب مستعظفاً لما فيها من حصيلة، فردوها عليه، لكنه وعى الدرس جيداً؛ فعكف على حفظها ثلاث سنين، قبل أن يواصل الطلب⁵.

ثم رحل الغزالي إلى نيسابور، في عام 473 هـ، ولزم إمام الحرمين أبا المعالي الجويني؛ إمام الشافعية في وقته، ورئيس المدرسة النظامية، فدرس عليه مختلف العلوم؛ من فقه وأصول وكلام، ومنطق وفلسفة، واستفرغ الوسع في الطلب حتى وصفه الجويني بـ "البحر المغدق"⁶.

¹ - ابن خلكان البرمكي الإربلي أبو العباس أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس دار الثقافة، بيروت، 1968م، ج:4، ص:216. وتاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر للطباعة، مدينة الجيزة، ط:2، 1992م، ج:6، ص:191.

² - الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:9، 1413هـ، ج:19، ص:343.

³ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، م.س.، ج:1، ص:98.

⁴ - تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، م.س.، ج:6، ص:193-194.

⁵ - المصدر نفسه، ج:6، ص:195.

⁶ - المصدر نفسه، ج:6، ص:196.

ثانيا: إمامته في العلوم:

جمع الغزالي صفات الذكاء وسعة الأفق وقوة الحجة وإعمال العقل وشدة التبصر، مع شجاعة الرأي، وحضور الذهن، على أساس من العلم الوافر والعقل الراجح والبصيرة الواعية والفكر الراشد، فصارت له الإمامة في أغلب علوم عصره، وحاز بذلك ألقابا كثيرة في حياته، أشهرها لقب "حجة الإسلام"، ومنها أيضا: "زين الدين"، و"محجة الدين"، و"العالم الأوحّد"، و"مفتي الأمة"، و"بركة الأنام"، و"إمام أئمة الدين"، و"شرف الأئمة"، وغيرها مما يذكر بعضه لاحقا في ثناء العلماء عليه.

وقد شهد بسمو مقام الإمام الغزالي أكابر العلماء، فضلا عن شيخه إمام الحرمين، فهو عند الإمام الذهبي "الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان [...] صاحب التصانيف والذكاء المفرط"¹. وهو عند تاج الدين السبكي "حجة الإسلام، ومحجة الدين، التي يتوصل بها إلى دار السلام، جامع أشتات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم"²، وهو في تقدير ابن النجار "إمام الفقهاء على الإطلاق، ورباني الأمة بالاتفاق، ومجتهد زمانه"³، ولدى ابن العماد الحنبلي: "الإمام زين الدين حجة الإسلام، أبو حامد أحد الأعلام، صنف التصانيف مع التصون والذكاء المفرط والاستبحار في العلم"⁴. وغير هؤلاء كثير ممن أثني عليه.

ثالثا: تجربته الروحية:

صرف الإمام الغزالي همته، وهو يشتغل بالتدريس في المدرسة النظامية ما بين سنتي 484هـ و488هـ، إلى التعمق في دراسة مقالات الفلاسفة والمتكلمين والباطنية والصوفية، بهدف استيعابها، والرد على الباطل منها، إلى أن بز الأقران في المناظرة. وفي غمرة المجد والشهرة والجاه تداركته العناية الربانية فتملكته الحيرة، ولم تعد لديه الرغبة في أي شيء من ذلك؛ فعزف عن الدنيا وأبهتها، وخرج بعد تردد من بغداد سنة 488هـ إلى الحج بعد أن استناب أخاه في التدريس⁵.

ثم دخل دمشق سنة 489هـ، فأقام بها أياما، وتوجه بعدها إلى بيت المقدس فجاور به مدة، ثم عاد إلى دمشق؛ فاعتكف بالمنارة الغربية من الجامع، وبها كانت إقامته، فقام بالشام مدة، وهو معتكف على العبادة وتزكية النفس وتطهير القلب؛ فكان من ثمرات هذه التجربة الفريدة تأليفه لكتاب "إحياء علوم

1 - الذهبي شمس الدين، سير أعلام النبلاء، م.س.، ج: 19، ص: 322.

2 - تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، م.س.، ج: 6، ص: 192.

3 - الذهبي شمس الدين، سير أعلام النبلاء، م.س.، ج: 19، ص: 335.

4 - ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، ج: 2، ص: 10.

5 - تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، م.س.، ج: 6، ص: 197.

الدين¹ ضمن مشروعه الجديد لإعادة الروح لتدين المسلمين؛ بعد أن غدا الفقه الإسلامي أحكاما جامدة غابت مقاصدها الروحية أو كادت.

هكذا عقد ببغداد، بعد عودته من دمشق سنة 499 هـ، مجلسا للوعظ، وحدث بكتاب "الإحياء"، ثم رجع إلى مدينة طوس ولازم بيته²؛ قال في المنقذ من الضلال: "ثم جذبتني الهمم، ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق إليه؛ فأثرت العزلة به أيضا حرصا على الخلوة، وتصفية القلب للذكر"³.

المطلب الثاني: ميراث الإمام الغزالي العلمي والتربوي.

أولا: تنوع مؤلفاته وكثرة الدراسات بشأنها:

للإمام الغزالي باع كبير في علوم شتى عز اجتماعها عند غيره؛ قال شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي: "إذا ذكر الغزالي فقد تشعبت النواحي، ولم يخطر بالبال رجل واحد، بل خطر بالبال الغزالي الأصولي الحاذق الماهر، والغزالي الفقيه الحر، والغزالي المتكلم، إمام السنة وحامي حماها، والغزالي الاجتماعي، الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر ومكنونات القلوب، والغزالي الفيلسوف، أو الذي ناهض الفلسفة، وكشف عما فيها، إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره، رجل متعطش إلى معرفة كل شيء نهم إلى فروع المعرفة"⁴.

لقد ترك الإمام الغزالي بفضل عكوفه على البحث والاستقصاء ميراثا غنيا من التواليف؛ شغلت عددا من العلماء والباحثين، قديما وحديثا، عربا ومستشرقين، بدراساتها وكذا التحقيق في نسبتها إليه؛ فمن المتقدمين: عبد الغافر الفارسي (529هـ)، وأبو بكر بن العربي (543هـ)، وابن عساكر (ت 571 هـ)، وابن الجوزي (597هـ)، وياقوت الحموي (626هـ)، والحافظ ابن الصلاح (642هـ)، ومحي الدين النووي (676هـ)، وابن خلكان (681هـ)، والحافظ الذهبي (748هـ)، وتاج الدين السبكي (771هـ)، وطاش كبرى زادة (968هـ)، والمرتضى الزبيدي (1205هـ)، وغيرهم⁵.

ومن المُحدثين والمستشرقين: جميل صليبا، وكامل عياد، وجولد تسهير، ولويس ماسينيون (...). وقد أنجز عبد الرحمان بدوي عملا مميّزا في الباب؛ بسرد قائمة بالمؤلفات المنسوبة للإمام الغزالي بلغت أربع مئة وسبعة وخمسين (457) كتابا ورسالة، ما بين مطبوع ومخطوط ومفقود، وعمل على تقسيمها إلى

¹ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

² - المصدر نفسه، ص: 200.

³ - أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، دار الأندلس، بيروت، ط: 7، 1967م، ص: 106.

⁴ - نقلا عن الشيخ يوسف القرضاوي، الغزالي بين مادحيه وناقديه، مؤسسة الرسالة، ط: 1، 2000م، ص: 19.

⁵ - بدوي عبد الرحمن، مؤلفات الغزالي وكالة المطبوعات، الكويت، ط: 2، 1977م، ص: 9-15.

أصناف؛ منها: الكتب المقطوع بصحة نسبتها إلى الغزالي، والكتب المشكوك في نسبتها إليه، والمجهولة الهوية، والمنحولة، وغيرها¹.

ثانياً: أهم مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة:

ألف الإمام الغزالي في الفقه "البيسط" و"الوسيط" و"الوجيز" على مذهب الشافعي، وما يزال أولها مخطوطاً، كما ألف "خلاصة المختصر ونقاوة المعتصر" (مخطوط)، والفتاوى (مطبوع)، وغيرها.

وكتب في أصول الفقه "المنخول من تعليق الأصول" (مطبوع)، و"شفاء الغليل في الشبه والمخيل ومسالك التعليل" (مطبوع)، و"أساس القياس" (مطبوع)، و"المستصفى من علم الأصول" (مطبوع)، و"حقيقة القولين" (مخطوط)، وغيرها.

وله في علم الكلام (العقيدة) "المنقذ من الضلال" (مطبوع)، و"الاقتصاد في الاعتقاد" (مطبوع)، و"فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة" (مطبوع)، و"المقاصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" (مطبوع)، و"الأربعين في أصول الدين" (مطبوع)، و"إجماع العوام عن علم الكلام" (مطبوع)، وغيرها.

وألف في الفلسفة والمنطق: "مقاصد الفلاسفة" (مطبوع)، و"تهافت الفلاسفة" (مطبوع)، و"معيان العلم في فن المنطق" (مطبوع)، و"محك النظر في المنطق" (مطبوع)، و"القسطاس المستقيم" (مطبوع)، وغيرها.

وكتب في التصوف والأخلاق والتربية والتعليم: "إحياء علوم الدين" (مطبوع)، و"منهاج العابدين" (مطبوع)، و"بداية الهداية" (مطبوع)، و"ميزان العمل" (مطبوع)، و"معراج السالكين" (مطبوع)، و"أيها الولد" (مطبوع)، و"التبر المسبوك في نصيحة الملوك" (مطبوع)، وغيرها.

وله في الأديان والفرق: "الرد الجميل على الإلهية عيسى بصريح الإنجيل" (مطبوع)، و"المستظهري؛ فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية" (مطبوع)، وله كتب مفقودة في كل مجال مما ذكر، وفي التفسير في علم الخلاف والجدل وطرق المناظرة، وغيرها.

المطلب الثالث: تجربة الغزالي في التدريس وفلسفته التربوية:

إن علو كعب الإمام الغزالي في منهج التربية والتعليم يعود إلى امتزاج خبرات رافدين أساسيين في كل تميز وظيفي؛ أولهما سعة الاطلاع في هذا المجال؛ وهي مبنية على مواهبه؛ فطنة وذكاء وقدرة على التحصيل، وثانيهما: التجربة العملية التي حصلها من التدريس في مدرستين هما من أرقى مدارس عصره؛ هما النظامية ببغداد، والنظامية بنيسابور.

¹ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

أولاً: تجربة الإمام الغزالي في التدريس:

لقد كان تميز الإمام الغزالي، واعتزاز شيخه الجويني به، مفتاحاً لاكتساب الخبرة الأولية في مجال التدريس؛ إذ جعله شيخه مساعداً له في إلقاء الدروس. وعندما توفي الجويني رحمه الله، سنة 478هـ/الموافق 1085م، خرج الغزالي إلى "عسكر نيسابور"، قاصداً مجلس نظام الملك (وزير الدولة السلجوقية)، فناظر كبار العلماء هناك، وظهر علمهم، واعترفوا بفضله، وتلقوه بالتعظيم والتبجيل..¹

فعرض عليه نظام الملك التدريس بالمدرسة النظامية في بغداد، فصار أستاذاً بها، عام 484هـ/1091م، ولم يتجاوز حينئذ الرابعة والثلاثين من عمره. وأقام على التدريس والفتيا والتصنيف أربع سنوات، اتسعت فيها شهرته، وأعجب به الناس لحسن كلامه وفصاحته لسانه وكمال أخلاقه، وصارت تشد له الرحال²؛ إلى أن غادر بغداد بفعل اليقظة القلبية التي عاشها حسبما تقدم في تجربته الروحية.

لكن بعد عودته إلى بغداد سنة 499هـ، وعقده العزم على الخلوة، حضر إليه الوزير فخر الدين بن نظام الملك؛ وطلب منه أن يدرس في نظامية نيسابور، وألح عليه حتى استجاب له، وأقام في التدريس مدة حتى اغتيل فخر الدين رحمه الله بيد باطني سنة 500هـ، فاعتزل الغزالي التدريس، وأقام في بلده طوس، وبني مدرسة وزاوية بجوار بيته، وعكف على التعليم والتربية³.

ومن تلامذته⁴: أبو النصر أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الخمقي؛ المتوفى سنة 544هـ، وأبو منصور محمد بن إسماعيل بن الحسين العطاري؛ المتوفى سنة 486هـ، وأبو الفتح أحمد بن علي بن محمد بن برهان؛ المتوفى سنة 518هـ، وأبو سعيد محمد بن أسعد التوقاني؛ المتوفى سنة 554هـ، وأبو بكر بن العربي المعافري؛ المتوفى سنة 495هـ... وغيرهم كثير ممن نهلوا من علمه، وتشربوا من نورانيته.

ثانياً: فلسفة التربية عند الإمام الغزالي وأسسها:

اتسمت رؤية أبي حامد لموضوع التربية بالابتكار من خلال معالجته بصيغة علمية دقيقة؛ ذلك لأنه كان "مربياً عالماً بالنفس البشرية وخفاياها، متأملاً فعاليتها وأحوالها، محللاً بارعاً للسلوك وخلجات الضمير"⁵؛ فهو في مشروعه الفكري خير من نظر إلى النفس الإنسانية من حيث دوافعها، وغرائزها، وكيفية السمو بها في مدارج الصلاح، لضمان سعادتها في الحال والمآل.

¹ - تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، م.س.، ج:6، ص:196-197..

² - المصدر نفسه، ص:196-197.

³ - المصدر نفسه، ص:200.

⁴ - المصدر نفسه، ص:235-237.

⁵ - عبد الكريم عثمان، الدراسات النفسية عند العرب والغزالي بوجه خاص، مكتبة وهبة، القاهرة، ط:1، 1962م، ص:9.

ولعل انصباح موضوع التربية عند الإمام الغزالي بـ "الصبغة الصوفية"، أو قل "السمة الروحية الأخلاقية" على وجه التدقيق والتأصيل، هي التي تحجب الكثير من الباحثين عن الإفادة المثلى من منظومته الفكرية التربوية المبنية على خبرته بالنفس البشرية. وما ذلك في تقديري إلا لاختلال ميزان القوى على مستوى مرجعيات البحث العلمي، والتربوي، في العالم الإسلامي منذ نكبة الاستعمار؛ ما بين فلسفة التربية الغربية المفروضة قسراً بمختلف توجهاتها الليبرالية والشيوعية، وبين فلسفة التربية الإسلامية المعبرة عن الهوية الحضارية للأمة، المنسحبة من حلبة التدافع الثقافي بفعل مطارق الغزو ومزالق الاستلاب والغفلة واللهو.

وأما المنزع الصوفي في آراء الغزالي فلا يقوم دليلاً للمعرضين بسببه عن تراث هذا الإمام العظيم، بل نفيد من مواهبه، ومعرفته بالنفس البشرية ومصارع انحطاطها، ومسالك تربيتها. ثم لا ضير بعد ذلك أن نشيح عما تبناه من الأساليب التربوية المطروفة بسياقها التاريخي؛ كاشتراط الخلوة في التربية واعتزال الشأن العام، وغيره مما لا يستقيم مع الأصول القرآنية النبوية من جهة، ومقتضيات العصر من جهة ثانية.

ولذلك لابد لدراسة موضوعية، تنشد إمطة اللثام عن بعض كنوز الإمام في المجال التربوي، أن تتناول المبادئ التي حكمت تصوره المتكامل للتربية والتعليم، المؤسس على الخبرة بالمرجعية الإسلامية بكل أبعادها من جهة، وعلى التجربة الميدانية المكتسبة من اشتغاله بالتدريس وشغفه به. وأكتفي في هذا السياق بجملة من المبادئ نظراً لطبيعة المقام:

أ. الأساس الإيماني الروحي للتربية:

يضع أبو حامد تصوره لصياغة الشخصية الإنسانية على بساط خصوصيات التربية القرآنية النبوية، المؤطرة للمادة والروح، الجامعة بين توجيه حركة القلب والعقل والجسد، المتخذة من رسول الله ﷺ قدوة لها، الرامية إلى تحقيق سعادة الدارين على نور من هديه صلى الله عليه وسلم.

هكذا يجعل نشدان السعادة الأبدية بوصلة التربية، بل أفرد لها مؤلفاً سماه «كيمياء السعادة»؛ قال رحمه الله في كتاب "الإحياء": "وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل، فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم؛ فهو إذن أفضل الأعمال"¹.

¹ - الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، لبنان، بيروت، ط: 1، 1426هـ/2005م، ص: 20.

ب. الأساس الأخلاقي للتربية:

يتصل الأساس الأخلاقي بالأساس الروحي في المرجعية الإسلامية اتصالاً وثيقاً؛ لأن أعلى الأخلاق وأسمائها حسن التعامل مع الحق سبحانه؛ محبة له، وحياء منه، وإجلالاً له، وهيبة منه ...

ولذلك استثمر الإمام الغزالي معرفته بالنفس الإنسانية في نزوعها، واضطرابها، وما يختلج فيها من أهواء، وما يعترضها من أوهام وخيالات، وما تنحط إليه من رذائل؛ ليوجه مشروعه التربوي نحو تحقيق السمو الخلقي إلى أعلى مقامات الفضائل بالتحلي بعد التخلي عن الرذائل؛ يقول الدكتور محمد يوسف موسى: "إن الإمام الغزالي عرض لمسألة الخلق في كثير من مؤلفاته، ومنها "الإحياء" وبحث في الخلق، ما هو؟ وبم يكون حسناً؟ وهل يقبل التغيير؟ وكيف؟ وبم يعالج الخلق السيء والرذيلة"¹.

هكذا أقام منهجه على تهذيب النفس لاكتساب الفضيلة، والفوز بالسعادة، وهو يرى: "أن السعادة تنال بتزكية النفس وتكميلها، وأن تكميلها باكتساب الفضائل كلها"². وليس من المبالغة القول بأن الدراسات الأخلاقية عرفت طوراً جديداً من التوضيح والتنظيم مع الإمام الغزالي³.

ج. الأساس العلمي للتربية:

العلم أساس العمل؛ ولذلك لم يخل كتاب من كتب أبي حامد من العناية بهذا الأساس، تذكيراً أو تفصيلاً، قد استهل على سبيل المثال تأليفه لـ "إحياء علوم الدين" بكتاب العلم⁴، وجعله سبعة أبواب؛ أولها باب "فضيلة العلم والتعليم والتعلم"، وخامسها باب "آداب المعلم والمتعلم". ومعهما من الأبواب ما يفتل في تحصين هذا الأساس؛ بذكر "فرض العين وفرض الكفاية من العلوم، وبيان علم الآخرة وعلم الدنيا"، و"ما تعدّه العامة من علوم الدين، وليس منه؛ وفيه بيان جنس العلم المذموم وقدره، وآفات المناظرة، وسبب اشتغال الناس بالخلاف والجدل"، و"آفات العلم والعلماء والعلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة، والعقل وفضله وأقسامه".

د. الأساس العملي للتربية:

- 1 - محمد يوسف موسى، فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ط: 3، 1963م، ص: 181.
- 2 - الغزالي أبو حامد، ميزان العمل، "كتب هوامشه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1989م، ص: 67.
- 3 - هذا ما لاحظ الدكتور عبد الكريم العثمان؛ ينظر: الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص، م.س.، ص: 352.
- 4 - قسم الإمام الغزالي كتاب "الإحياء" إلى أربع؛ ربع العبادات، ثم ربع العادات، ثم ربع المهلكات، ثم ربع المنجيات. ثم جعل كتاب العلم أول كتاب من الربع الأول مفتتحاً به.

يولي منهج التربية والتعليم في الإسلام عناية قصوى للعمل (التطبيق)، بعد تخليص القصد والنية، نظرا للتلازم بين العلم والعمل في المنظومة التربوية الإسلامية؛ وهو ما يؤكد جلال العلماء¹؛ ومنهم الإمام الغزالي الذي يقول: "فإنه يحسب أن العلم المجرد له، سيكون نجاته وخلصه فيه، وأنه مستغن عن العمل، وهذا اعتقاد الفلاسفة، سبحانه الله العظيم! لا يعلم هذا [...] أنه حين حصل العلم، إذا لم يعمل به، تكون الحجة عليه أكد"².

ويقول: "فلو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها، ولم يعمل بها، لا تفيده إلا بالعمل [...]"، ولو قرأت العلم مائة سنة، وجمعت ألف كتاب، لا تكون مستعدا لرحمة الله تعالى إلا بالعمل"³. وكلها عبارات تحكي اقتران الإيمان بالعمل الصالح في القرآن الكريم اقتران التوأمين اللذين لا يفترقان.

المطلب الرابع: معالم من منظومة الغزالي التربوية التعليمية:

لقد أغنى الإمام الغزالي خزانة التربية، ومناهج التدريس، بما خلفه من الآراء المبتوثة في الكثير من كتبه؛ وبخاصة: كتاب "إحياء علوم الدين"، و"أبها الولد"، و"ميزان العمل"، و"فاتحة العلوم"، و"الرسالة اللدنية"، وغيرها مما خصص كله، أو بعضه، لمعالجة قضايا ذات صلة بموضوعنا؛ من قبيل: طبيعة الطفل وقواعد تربيته، وقيمة العلم، وقيمة المعلم، وهدف التعليم، ووظائف المعلم والمتعلم...

أولاً: مقاصد التعلم:

قسم الإمام الغزالي مقاصد التعلم إلى قسمين: محمود مطلوب ومذموم منهي عنه. قال بشأن أولهما: "إن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبي، وتهذيب أخلاقك، وكسر النفس الأمارة بالسوء، فطوبى لك ثم طوبى لك"⁴.

وقال عن الثاني: "إن كانت نيتك فيه نيل عرض الدنيا، وجذب حطامها، وتحصيل مناصبها، والمباهاة على الأقران والأمثال، فويل لك ثم ويل لك"⁵.

ثانياً: مضامين التعليم والضروري من العلوم وغيره:

رتب الغزالي العلوم تبعا لأولويات تعلمها إلى: وفرض عين، فرض كفاية، وقال في "فرض العين" بعد تفصيل: "هذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين؛ ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب فمن علم العلم

¹ - ينظر على سبيل المثال كتاب "الخطيب البغدادي" بعنوان (اقتضاء العلم العمل).

² - الغزالي أبو حامد، أبها الولد، دار المنهاج، لبنان، بيروت، ط: 2، 1435هـ/2014م، ص: 38.

³ - المصدر نفسه، ص: 40.

⁴ - المصدر نفسه، ص: 44.

⁵ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو فرض عين¹. ومن هذا القبيل ما تصح به العبادات المفروضة، والمعاملات الضرورية...

و"أما فرض الكفاية؛ فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان؛ وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات؛ وقسمة الوصايا والمواثيق وغيرها؛ وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد؛ وإذا قام بها واحد كفى؛ وسقط الفرض عن الآخرين"².

ثالثاً: المتعلم وخصائصه ووظائفه:

لقد كان للغزالي فضل الأسبقية في العناية بأهم مرحلة تتم فيها صياغة شخصية الإنسان، وهي مرحلة الطفولة؛ فاهتم بطبيعة المتعلم/الطفل وخصائصه، وأثرها في التعلم.

الأصل الفطري للطفولة:

يقول أبو حامد: "كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة، إنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، أي: بالاعتقاد والتعليم تكتسب الرذائل، وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية والغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة، قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتربية، وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم"³.

وهو مبدأ يتأسس على الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ"⁴.

وظائف المتعلم (مبادئ التعلم):

جعل الغزالي للمتعليم عشر وظائف؛ هي بمثابة توجهات تربوية تعين المتعلم على ترشيد أنشطته التعليمية، وتحسينها من مزالق الانقطاع، أو الانحراف عن القصد. وأوردها فيما يأتي مختصرة تبعا لما يسمح به المقام.

الأولى: طهارة النفس من الأخلاق الرديئة، والثانية: أن يقلل علائقه من الأشغال الدنيوية، والثالثة: أن لا يتكبر على العلم وأهله، والرابعة: الانطلاق من القواعد والأصول قبل محال الخلاف، والخامسة: تنوع المعرفة والحرص على تحصيل ما تيسر من العلوم المختلفة، والسادسة: مراعاة الترتيب

¹ - الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، م.س.، ص: 23.

² - المصدر نفسه، ص: 24.

³ - الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، م.س.، ص: 943.

⁴ - البخاري محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، دار ابن كثير، بيروت، ط: 1، 1423هـ/2002م، كتاب الجنائز، باب "بِمَا قِيلَ فِي أَوْلَادِ الْمُشْرِكِينَ، حديث رقم: 1385، ص: 334.

والتدرج في طلب العلم؛ فلا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله، ويبدأ بالأهم، والسابعة: الأخذ من كل شيء أحسنه؛ لأن العمر لا يتسع لكل شيء، والثامنة: طلب ما شرف من العلم، والتاسعة: معرفة أنواع العلوم بصورة إجمالية مختصرة، والعاشر: الحرص على أن تكون غاية العلم كمال النفس، والتقرب إلى الله عز وجل، ولا يكون قصده الرئاسة، والمال، ومباهاة السفهاء، وممارسة العلماء¹.

رابعاً: المعلم/المربي ووظائفه:

يجعل أبو حامد شرط القدوة أساساً، وإن تأخر ترتيباً في جرده لوظائف المعلم/المربي؛ فعلى "من يتصدى لتعليم غيره وإصلاحه أن يبدأ بتعليم نفسه وإصلاحها"². وأما مختصر الوظائف التي جعلها على عاتق المعلم/المربي فقد حددها في ثماني وظائف؛ يمكن إجمالها كالآتي³:

الأولى: أن يجري المتعلم منه مجرى أبيه، والثانية: ألا يطلب المال وأغراض الدنيا بالعلم [أصالة، وأما تبعاً فلا حرج للضرورة والحاجة]، والثالثة: نصح المتعلم وتوجيهه، والرابعة: نهي الطفل عما يجب أن ينهى عنه بالتعريض لا بالتصريح؛ والزجر، والخامسة: عدم تقبيح العلم في نفس المتعلم، والسادسة: مراعاة استعداد المتعلمين، والسابعة: تذكير المتعلم بالقاصر بما يحتمله فهمه؛ حتى لا يفتر رأيه فيما يتعلمه، والثامنة: أن يكون المعلم عاملاً بما يعلمه؛ فعلى المعلم ألا يكذب سلوكه قوله، فينفر الناس من الاسترشاد والرشد، فلتكن عنايته بتزكية أعماله أكثر منه بتحسين علمه ونشره.

خاتمة:

جملة القول: إن البحث في مكتبة حجة الإسلام الإمام الغزالي للكشف عن أوجه إسهامه في مجال التربية والتعليم موضوع ذو أبعاد متعددة متنوعة لن تسعها هذه الرحلة القصيرة، ولذلك نرجو أن تيسر فسحة أخرى في قابل لمناولة أكثر تفصيلاً...

وحسبنا في هذه أن الميسور لا يسقط بالمعسور، والله تعالى نسأل أن يقيض لحاضر الأمة ومستقبلها مجددين يستفرون الوسع لإنارة سبل الهدى للأجيال على مر الزمان؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه. والحمد لله رب العالمين.

¹ - الغزالي أبو حامد، ميزان العمل، م.س.، ص: 143-130.

² - الغزالي أبو حامد، الاقتصاد في الاعتقاد، دار الأمانة، بيروت، ط: 1، "1969م، ص: 17.

³ - الغزالي أبو حامد، ميزان العمل، م.س.، ص: 151-145.

لائحة المصادر والمراجع

1. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت.
2. ابن خلكان البرمكي الإربلي أبو العباس أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس دار الثقافة، بيروت، 1968م.
3. أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، دار الأندلس، بيروت، ط:7، 1967م.
4. البخاري محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، دار ابن كثير، بيروت، ط:1، 1423هـ/2002م.
5. بدوي عبد الرحمن، مؤلفات الغزالي وكالة المطبوعات، الكويت، ط:2، 1977م.
6. تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر للطباعة، مدينة الجيزة، ط:2، 1992م.
7. الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:9، 1413هـ.
8. عبد الكريم العثمان، الدراسات النفسية عند العرب والغزالي بوجه خاص، مكتبة وهبة، القاهرة، ط:1، 1962م.
9. الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، لبنان، بيروت، ط:1، 1426هـ/2005م.
10. الغزالي أبو حامد، الاقتصاد في الاعتقاد، دار الأمانة، بيروت، ط:1، 1969م.
11. الغزالي أبو حامد، أيها الولد، دار المنهاج، لبنان، بيروت، ط:2، 1435هـ/2014م.
12. الغزالي أبو حامد، ميزان العمل، "كتب هوامشه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 1989م.
13. القرضاوي يوسف، الغزالي بين مادحيه وناقديه، مؤسسة الرسالة، ط:1، 2000م.
14. محمد يوسف موسى، فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ط:3، 1963م.